المحاضرة 4/3

الظاهرة الدينية و الترميز الثقافي

1- محاولة التأسيس

ظهر في أواخر القرن التاسع عشر إدوارد تايلور وكان من أنصار نظرية التطور، وكان يرى أن الحضارات أو السلالات البشرية تمرّ بمراحل متتالية من التطور هي: الوحشية وتليها الهمجية، وأخيراً المرحلة المدنية أو الحضارية. ولقد كرس مولر جهوده البحثية في دراسته للميثولوجيا والفلكلور من أجل بناء نظرية لتطور الجنس البشري. ونادى بمفهوم وحدة النفس أو العقل البشري؛ بمعنى أن الطبيعة الإنسانية متشابهة في الأساس، ومردّ الاختلافات بين المجتمعات البشرية يعود إلى المرحلة التطورية التي بلغتها، ونظراً إلى أن كل مرحلة من مراحل التطور تفرز خصائص المرحلة، وهي ستتغير مع تطور ذلك المجتمع. ومن أهم وسائل التغير أو التطور الاستعارة أو انتشار أساليب التفكير والاعتقاد بين المجتمعات؛ فلدى البشر القابلية للتطور وقبول الأفكار الجديدة التي تساعدهم للانتقال من طور إلى طور.

ولهذا كان مولر، يرى أن الدين هو الاعتقاد بوجود الروح أو النفس، وهي تسمى بالنظرية الروحانية، إذ تقوم على مبدأين؛ الأول هو الاعتقاد بأن أرواح الأفراد لا تتلاشى بموتهم، وإنما تنفصل عن أجسادهم وتبقى على قيد الحياة. أما المبدأ الآخر، فإنه يتعلق بوجود أرواح علوية يؤلِّهها البشر، ومن هذه المنطلقات بنى تصوراً ميسراً على أساسه ما يمكن وصفه بالدين في المجتمعات البشرية البسيطة.

ولقد دفعته نظريته إلى الحديث عن أمرين مرتبطين بالجسد هما الروح والخيال. فالروح تمنح الجسد الحياة والقدرة على الشعور والإحساس والتفكير والحركة، وهي عندما تفارق الجسد في حالة الموت أو النوم أو الغيبوبة؛ فإنها تبقى -مع عدم إدراكنا ذلك- في نظر الإنسان الأولي ذات وجود مادي، ممّا يجعل الإنسان الأول يتصوّر أن للروح حياة خاصة مستقلة بذاتها، وهي التي تزوره في أحلامه، وهي المولِّد الأساس للرؤى المشكلة للظاهرة الدينية.

إذن، نقلنا تايلور بعيداً عن تصـورات مولر عن فسـاد اللغة، ليربطنا بحياة الناس في وجودهم اليومي المعيش، وربط من طريق ذلك معبراً عن الحياة الدنيا والحياة الأثيرية الأخروية، مما قد يومئ بأن فكرة التناسـخ كانت جزءاً من فكر الإنسـان الأول إلى مركب معتقد من المعتقدات حول انتقالات الروح، ليتطور لاحقاً إلى الإيمان بالبعث والحسـاب. ومن منظور تايلور يفسـر تعدّد الطقوس الدينية التي تأخذ في التبلور والتمايز في مراحل متقدمة من التطور البشـري بعد أن يصـل التنظيم الاجتماعي إلى مرحلة تكون فيها الطبقية وفرز أفراد المجتمع في شـكل مراتب اجتماعية وسياسية، مما يدفع إلى ظهور المؤسسات الاجتماعية في شكل متقدِّم، يمكّن من تحويل الطقوس الدينية التي هي في الأسـاس نتاج اجتماعي يعكس التفاعلات والعلاقات الاجتماعية للبشـر ويأخذ أشـكالاً في شـكل علاقة المسود بالسيد أو أشكالاً مختلفة للزبونية.

2-الظاهرة الدينية و التنظيم الاجتماعي:

ما الدعاء أو الرجاء أو التوسل سوى أشكال اجتماعية دوافعها الخوف من العقاب والأمل في الثواب، بعد هذه المرحلة من التطور تشـهد المجتمعات البشـرية ظهور أماكن العبادة والتقديس، ومعها يظهر مفهوم القربان الذي يتحوّل مع الوقت إلى رمز للتعبير عن الولاء والتبعية والامتنان والشـكر؛ وفي هذه المرحلة من التطور، يبدأ ظهور السلطة السياسية والطبقية التي تتداخل مع ما هو "ديني". وهنا يُدخلنا تايلور إلى كيفية تطور الفكر الديني إلى أن يكون عاكساً ليس فقط لعلاقة الإنسان بالطبيعة، وإنما علاقات البشر ببعضهم بعضاً من خلال علاقة السـلطة والمصـالح، وهذه المرحلة تعدّ بداية الانتقال من مرحلة تعدُّد الآلهة إلى مرحلة التوحيد، والتي ربما تؤكد على ضـرورة تكريس علاقات السلطة في قوى اجتماعية سياسية محورية.

ويُرجع تايلور تضـعضـع العقائد الدينية مع مرور الوقت وضـعف مؤسـساتها إلى طبيعة الدين المحافِظة، حيث لم يعُد القائمون على الشـأن الديني بمقدورهم اللحاق بمستجدات العصر والتكيف معها بالسرعة الكافية أو المناسبة، حيث يعودون غير قادرين على تلبية الحاجات العاطفية أو الذهنية للناس، مما يقتضي تفسيرات جديدة بناء على المرحلة التطورية التي يعيشها الناس.

ولقد لقيت أفكار تايلور قبولاً ونقداً واسعاً في الأوساط الأكاديمية، لكن مع ذلك كان لأفكاره أثرها العظيم على ما دار من أفكار مكَّنت من إعادة تفسير الكثير من مواد المأثور الشعبي التي نجدها متناثرة في ممارسات وأفكار الطبقات الدنيا في المجتمعات الأوروبية، وبالذات بين فقراء المدن وساكني الريف.

3-نماذج أنتروبولوجية

وكانت أستراليا وما جرى فيها من دراسات، تشكِّل المهاد الأساس لدراسة الديانات في أشكالها البسيطة والأولية، وهي التي مدّت الفكر الأنثروبولوجي بمفهوم الطوطمية الذي أدى دوراً محورياً في تلك الدراسات حتى عقود. ولعلّ ما تناوله دوركايم في كتابه المعنون: الأشكال الأولية للحياة الدينية أكبر الأثر على الدراسات الحديثة عن الدين. إنّ مفهوم الطوطمية قد خلق موجة معقّدة دعائية من الجدل والنقاش ربما أدى إلى مزيد من ضبابية المفهوم وعسر هضم منهجية، حتى عقود ماضية قليلة عند ليفي شتراوس وسواه، وهي مرحلة عنوانها أن الدين والتصورات الدينية عبارة عن نتاج تمثيل للمجتمع نفسه في شكل آلهة ومفاهيم مثالية، ولقد أثّر مفهوم الطوطمية أنثروبولوجياً في تفسيره، وفي تطوير نظريات عديدة عن النسق القرابي والتنظيم الاجتماعي.

وقد استخدم مفهوم الطوطمية لتفسير العديد من الظواهر الاجتماعية والنفسية ليس فقط في المجتمعات الأولية، وإنما أيضاً في تفسير الكثير من الظواهر النفسية في العالم الحديث. وكتاب فرويد المعنون الطوطمية يفسر العديد من ردود الفعل الاجتماعية اللاواعية على أساس هذا المفهوم.

وفي هذا السياق، يبرز تأثير فريز صاحب الغصن الذهبي، والذي من خلال جمعه وتبويبه للأساطير في العالم، كان له عظيم التأثير على أفكار المشتغلين في الدراسات الأنثروبولوجية والفلكلورية، وصديقه وزميله ويليام رابرتسون سميث الذي كان رائداً مهماً في دراسته حول الطوطمية في سياق دراساته عن الجزيرة العربية: الدين، وكذلك دراساته عن الزواج والأسرة فيها، ويعدّ كتابه من أهم الدراسات العميقة، وكان -وربما لا يزال- لدراسته حالة الساميين (العرب) الأثر الكبير في دراسة الدين من الناحية الأنثروبولوجية بعيداً عن التفسيرات اللاهوتية التقليدية. وفي دراساته، برز الاهتمام بالشعائر والقرابين

والطوطم (طوطم القبيلة) كإشارة جامعة للقرابة وظهور إله العشيرة مع الزراعة أو الرعي.

4-من الاجتماعي إلى الأسطوري

لقد قادت دراسات سميث وفريز، إلى الانتقال من التشكلات الاجتماعية إلى تشكل الأساطير المشكلة لتفسيرات أوسع وأعمق لخلق الكون ومصدر الحياة، انطلاقاً من التطور المعرفي والعلمي الذي توصل إليه البشر.

ولقد تلا ذلك تحوُّل مهم آخر من الأساطير الكونية إلى إعادة النظر والتقييم لتطورات المفاهيم عن المجتمع وتشكل العقل الجمعي أو الضمير الكلي بعيداً عمّا كانت تفسّر به الأمم الأولية أو البدائية وعيها بنفسها وبمجتمعها؛ أي أن الدراسات بدأت تنتقل وتتحول من سعي لفهم وتفسير كيف كان البدائي يفسر عالمه إلى التأسيس لوعي وفكر يعمل على تفسير ما تحوّل إليه فكر ووعي الإنسان بما يقوم به من خلال الدين؛ فهو يخلق عالمه الديني من خلال تمركزه واهتمامه بذاته، ليصل إلى نظريات تقول بأن الدين نتاج لتصورات ومفاهيم اجتماعية ثقافية، وليس نتاج فكر فوق بشري. وفي المراحل المتقدمة من محاولات تفسير الدين كانت التحولات هي من الطوطمة إلى علم النفس وبعدها علم الاجتماع، بداية على يد فرويد في كتابة الطوطمية والتابو، ثم التحول إلى علم الاجتماع من النقاشات التي كان فارسها دوركايم وغيره من الأنثروبولوجيين، والدراسات النقدية للمسيحية واليهودية لدى فرويد لليهودية وفيورباخ للمسيحية.

5- نحو منهجية جديدة

وعند وصولنا إلى هذه المراحل شقت الدراسات الميدانية الأنثروبولوجية الدراسة لتلك المجتمعات، والتي تمكنت من تطوير مناهج ونظريات "علمية" منهجية دقيقة عوضاً عن الاعتماد على ملاحظات من رحالة ومستكشفين، ممّا استدعى رؤية جديدة أكثر عمقاً واتساقاً وتواصلاً مع المجتمعات والثقافات المدروسة. وأصبحت الدراسة أكثر تحديداً وتخصيصاً على مجتمع محدد أو ثقافة ما. ولم تتوقف هذه الدراسات الميدانية للإجابة عن أسئلة البدايات والأصول أو التعميمات الكونية العامة، وإنما أصبحت أكثر تحديداً ودقة، وتداخلت الدراسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بمفهوم الدين أو الحياة الدينية. كذلك لم تتوقف هذه الدراسات -في العقود المتأخرة- على دراسة المجتمعات والثقافات القديمة،

وإنما أخذت في دراسة الظاهرة الدينية في سياق أوسع، بما في ذلك دراستها في إطار المجتمعات الحديثة أو القائمة، بل وحتى مع تطبيق هذه الدراسات على الأديان العالمية الكبرى في العالم من إسلام ومسيحية وهندوسية وبوذية ونحو ذلك.

6-الترميز الانتروبولجي إسلاميا

ونظراً إلى أن هذه الدراسات لم تغلق نفسها عن نتاج المفاهيم والتصورات التي كانت سائدة في الحقل في دراسات مرحلة ما قبل الدراسات الميدانية الاحترافية، فإننا سنركز على نماذج من هذه الدراسات التي تمت عن المجتمعات الإسلامية بصورة مقتضبة -قد تكون مخلَّة- لكن القصد توضيح مدى الغنى والتنوع في الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة، وكيف يمكن أن تساعدنا على فهم ما تقدمه الأنثروبولوجيا في فهمنا لدور الدين وتأثيره في حياتنا اليوم.

ولعلّ تقديمنا لصور من هذه الدراسات، بدءاً من تلك التي سعت لتقديم تصور شامل، إلى الدراسات التي ركزت على جانب من تأثير الدين في الثقافة والحياة الاجتماعية والحياة العامة المجتمعية، وأيضاً دراسة بعض الوسائل والكيفيات التي يتشكَّل من خلالها الفكر الديني: لعلّ له دوره وأساليب انتشاره في الحياة العامة.

ومن نافلة القول الحديث عن مدى تأثير كلّ من جيرتس وجيلنر وتلاميذهم في دراسة دور وأثر الدين في حياة المجتمع المسلم اليوم؛ فلقد قام جيرتس بالعديد من الدراسات الميدانية والنظرية عن المجتمعات المسلمة وخصوصاً في كلّ من أندونيسيا والمغرب. فلقد درس في أندونيسيا مثلاً في كتابه دين جاوة ما يُعرف بالباطنية الجاوية وأثر العادات وبالذات ذات الأصول الهندوسية في بلورة صورة من إسلام تلفيقي مركَّب يُشكِّل مفهوم الإسلام في أندونيسيا وتحديداً في جزيرة جاوة. ولقد قارن جيرتس في كتابه المهم للإسلام ملاحظاً القيام بمقارنة لمفهوم الإسلام في كلٍّ من المغرب وأندونيسيا من خلال تقديم تصور لنماذج مثالية جعلها في شكل نائب محمد الخامس -الحسن اليوسي، وسوكارنو- كالجيكا وعلى أساس هذه النماذج المثالية حاول أن يوسِّع من فكرة كيف تأسست صورة القائد/ السياسي في مقابل القائد/ الروحي وكيف تمكَّن القائدان محمد الخامس وسكارنو من خلق صورة حديثة لقائد سياسي يحمل كاريزما روحية بحسب السياقات الثقافية المختلفة بين البلدين. إضافة إلى استفاضة

استخدام جيرتس لسير وفهم كيف تحوّل تفسير النصوص إلى واقع سياسي واجتماعي حديث، مستفيداً من كافة المفاهيم التحليلية حول المغرب خصوصاً في مفاهيم، مثل: المخزن، وبلاد السببة والمخزن، والمغرب المفيد وغير المفيد، وكيف أن هذه المفاهيم الفرنسية الاستعمارية بلورت النموذج المثال للفكر السياسي والحزبي في المغرب. بينما تقليد الأولياء الذين أسَّسوا لدخول الإسلام إلى أندونيسيا في وجدانهم وجذبهم الصوفي وباطنهم أدى إلى ظهور مفهوم الباشسيلا، ومن ثم الإسلام الأندونيسي الباطني النزعة القادر على التعايش مع أفكار مركبة ملفقة الترابط.

ولقد أسهم جيرتس في استعراض مسألة كيفية إعادة تفسير النص الديني المتسامي في شكل تفسيرات أيديولوجيا تبريرية لمظاهر مفهوم الإسلام في البلدين انطلاقاً من واقعها الثقافي وليس انطلاقاً من معاني أزلية نصّية كما يدّعي في الوهلة الأولى. وتظهر تفاصيل رؤية جيرتس للإسلام المغربي في مشروع دراسة صفرو التي ظهرت في كتابه المعنون المعنى والنظام في المغرب، والتي جعل محوريتها في البازار وانتهائه، باعتباره المفتاح لفهم التبادل والعلاقات المدنية بين أفراد المجتمع المغربي. وكان لاستخدام جيرتس منهجية الفهم الظاهراني أثر عظيم في تشكيل مدرسة تعدَّدت دراستها وتناولها لمظاهر وانعكاسات الدين في ثقافة وحياة المجتمع المغربي. فهؤلاء تلاميذ درسوا الطرائق الصوفية، وتحديداً التوجهات الشعبية العجائبية ذاتها من مثل العيساوية في دراسات كارينزانو وغيره من دراسات تناول البركة وطقوس القرابين وتشكِّل الأعياد الدينية عند إيكلمان وغيرها من دراسات خصبة تناولت الدين، باعتباره ثقافة تعطي معنى ونظاماً للحياة اليومية.

في المقابل وربما كنتاج للأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية والمدرسة الفرنسية الاستعارية، برزت جهود أرنست جلنر الذي قدَّم نوعاً متطوراً من الانقسامية لدراسة دور الدين في مجتمع المغرب في تشكلاته المختلفة المخزنية والقبائلية وفي الأوساط المدنية الفقيرة، ممثَّلة في السوق والزاوية والمسجد، وكيف أن البناء الاجتماعي وتحديداً الأسري والعشائري ما هو سوى تجسيد للممارسة والعلاقات الدينية. ولقد انتبه لموضوع التذبذبات التبدلية من الشرك إلى التوحيد -وهي

نظرية أخذها عن دايفد هيوم- ترى أن هذا التذبذب يساعد على عدم التطرف في الدين. كذلك يستخدم وبشكل تلفيقي آراء الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع: ماركس ودوركايم وفيبر لتقديم تفسيرات للسلوكيات الدينية في المغرب المدني والريفي (القبائلي)، بالإضافة إلى أفكار عامة حول كيفية تفسير القيادات السياسية للنصوص الدينية، انطلاقاً من فكرة مؤدّاها أن الإسلام يقدم في نصوصة الأصلية مخططاً أو مسودة لأسلوب حياة وثقافة ما.

ولقد أثرت آراء ودراسات كل من جيلنر وجيرتس على قطاع واسع من الباحثين الأنثروبولوجيين الدارسين للعالم العربي، لكن دراساتهم لم تقتصر على تقديم تصور عام شامل، وإنما ركزت على جوانب محددة، ومن هذه الجوانب دراسات سعت لتقديم تصورات الناس والمعاني التي يسقطونها على فهمهم لممارساتهم وطقوسهم الدينية اليومية، مثل ما نجده في "محادثات مغربية" أو داخل سياق الحياة الأسرية في دراسة "بيت سيدي عبد الله" التي تعقبت تعليقات ورؤى أسرة مغربية في الريف (شمال المغرب) حول العلاقات الأسرية والطبقية والهوية الدينية.

ولقد حظيت الإجراءات القانونية والقضائية بشيء من الاهتمام، وتعد دراسات لورنس روزن حول "أنثروبولوجيا العدالة" و"التفاوض للوصول إلى الواقع" والنظر إلى القانون، وبالذات ما تعلق منه في الأحوال الشخصية أمراً ثقافياً، إذ عن طريق هذا الفهم يُعاد تعريف معنى المفاهيم الأساسية من زواج أو قرابة على هذا الأساس.

اهتمت هذه الدراسات بالكيفية التي تعمل بها المحاكم الشرعية، ولقد أعدّت دراسات حول الموضوع، لعلّ ما تمّ فيها حول اليمن داخل إطار المذهب الزيدي من أهمها، وهنا نجد تقاطعات مهمة بين تقديم ملاحظات ميدانية حول إجراءات التقاضي في المحاكم الشرعية ودراسة الكيفية التي يتعامل بها القاضي مع النصوص الفقهية، بالذات حول فهم الدليل والقرينة القانونية، فيما سمي "دولة الحظ" كناية عن الصكوك الشرعية الصادرة عن تلك المحاكم.

واهتم بعض الأنثروبولوجيين بكيفية تكوّن العالم والواعظ المسـلم، باعتباره نتاج واقعه الثقافي والاجتماعي. وهناك في هذا السياق، دراسات عديدة اهتمت بدراسة كيفية تكوّن الفقيه أو الواعظ، فقدمت دراسة لإيكلمان الكيفية التي تشكّل بها مسار فقيه في إحدى القرى المغربية، ودرس ذلك من حيث معرفة قوة وتأثير الخطاب الشرعي التقليدي على ساكني تلك المنطقة. ودرس أنطون ريتشارد أسلوب ودور خطيب جمعة وتأثيره في إحدى القرى الأردنية، ولقد قامت الدراسة على دراسة بلاغة وأسلوب الوعظ وتأثيره في مجريات الحياة السياسية والاجتماعية الراهنة. وقام تلميذ لهذا الباحث بدراسة أربعة وعاظ يمثلون رؤى مختلفة في القاهرة ومحيطها، ليتعرف على أساليبهم ومدى تأثيرهم في محيطهم، إضافة إلى دراسة نصوص خطبهم، وتعدَّدت الدراسات في هذا المجال، ومن أطرفها دراسة تخطَّت دراسة تأثير خطب الجمعة، لتطال الكتاب المدرسي لمواد الدين في المدارس الحكومية الرسمية موضحاً الدور المهم للعلماء في تعريف ماهية الدين والأدوار المُناطة بالمفاهيم والتصورات الدينية في تشكيل الرؤية الدينية عند النشء في دراسة عنوانها "تعريف الإسلام."

المحاضرة 5-6

النشاط الثقافي و الفعل الرمزي

تنطوي ثقافة الشعوب بلا استثناء على رموز ذات دلالات أسطورية أو قيمية أو وطنية أو إبداعية ذات حضور في الوجدان الشعبي. ومن شأن الرموز المشتركة أن تزيد من وحدة الثقافة والحس المشترك بين أفراد الشعب. لا سيما إذا ارتبطت هذه الرموز بطقوس دورية.

يتحول بعض الناس في تاريخ الشعب إلى رموز وتحتفظ بهم الذاكرة الجمعية وتشعر بالكبرياء بالانتساب إليها. أو تتصارع حولها. وتجب الإشارة إلى أن أهم شرط لتحول الشخص رمزاً لدى الشعب أو المجتمع هو الإجماع. دون أن يمنع ذلك من أن تكون لبعض الجماعات والحركات رموزها الخاصة التي لا تقوم بوظيفة تكوين الثقافة المشتركة.

بل بالعكس إذا اختلف المجتمع حول نسبة الرمزية إلى شخص ما فإن ذلك قد يخلق شرخاً مجتمعياً، وبخاصة الرموز المرتبطة بالصراعات التاريخية حول الحكم أو السلطة والمستمرة في الحاضر. فلو أخذنا البطل الشعبي كيوسف العظمة برمزيته فإنه حاضر في الوجدان الشعبي، حاضر في القصيدة وكتب التاريخ، في التمثال الذي يتوسط ساحة من ساحات دمشق، وحائز على إجماع المجتمع السوري بل والشامي. ولو حللنا هذا الرمز لوجدناه ينطوي على حزمة من القيم السامية التي تجلها الثقافة الشعبية كالشهادة من أجل الوطن ضد العدو الخارجي، الشجاعة، الكرامة الوطنية، الزهد، إذاً عندما يتحول شخص إلى حالة رمزية فهذا دلالة على مجموع القيم التي يرمز إليها.

والشخص البطل لا يتحول إلى رمز بقرار شخصي منه أو من سلطة ما، كما حصل مع ستالين مثلاً الذي زرع تماثيله في كل مدن الاتحاد السوفييتي وعندما قضى أزيلت كل هذه التماثيل وصار رمزاً للشر الدكتاتوري.

والرموز الثقافية غالباً ما تتحول إلى مصدر تمتين العصبية الوطنية الجامعة فمحمود درويش مثلاً هو الآن بالنسبة للشعب الفلسطيني أحد أهم رموزه الوطنية الثقافية. حتى إن ضريحه في رام الله أصبح مكاناً للزيارات العفوية وصار اسمه اسماً لشارع ومدرسة ومركز ثقافي وجائزة وهكذا. تشير رمزية درويش إلى قيم

الجمال الشعري وقيم الوطن المعبر عنه شعرياً وقيم الكفاح التي صارت قصيدة يرددها الشباب وتغنى.

غير إن المشـــكلة تظهر حين يجري الاختلاف داخل الجماعة حول الرموز ويصـــل حد الصـــراع حولها بين مؤكد لرموزها القيمية ونافٍ لها. هنا ينعكس التعصب الديني والإيديولوجي في الانحيازات إلى الرموز.

ففي الوقت الذي يمثل فيه المعري رمزاً للعقل والفلســـفة عند جمهور ما وانتصب تمثاله عند قبره بحضور طه حسين آنذاك مثل بالنسبة إلى الأصوليين رمزاً للكفر والإلحاد وجرى تدمير تمثاله انطلاقاً من هذا.

بل إن الأخطر على وحدة الشـــعب الثقافية أن تتحول الرموز الدينية لأســـباب طائفية إلى موضوع صراع نظري وعملي، وإن حصل أمر كهذا فإنما يدل على هشاشة المجتمع وهشاشة ثقافته.

الرموز و النشاط الأنتروبولوجي

لا شـــك إن تعدد الجماعات حتى داخل الوطن الواحد يفضـــي إلى تعدد رموزها الثقافية المختلفة، وهذا التعدد يقع في حقل الحرية والذي يتوجب الاعتراف والاحترام. فالتعدد الثقافي يظهر هنا بوصفه ثراءً ثقافياً وليس سبباً للصراعات. وليس من الحكمة المعرفية والوطنية أن تحول الســـياســـة الرموز التاريخية إلى أدوات صراع، لا سيما وإن هذه الرموز لا علاقة لها بما هو مطلوب منها سياسياً. بل إن استحضار التاريخ الثقافي أو السياسي ليشارك في صراعات الحاضر وخلافاته ليدل على ما نسميه النكوص التاريخي والركود المجتمعي. طور الثقافات المختلفه رموزا لها بحيث انك حين تر الرمز فانك تعرف شـــيئا ما عن الثقافة المرموز اليها .و بهذا المعنى فان الرمز يلعب دور الملخص او المختصـــر لثقافه باكملها .فعندما تر مثلا رمز المطرقه و المنجل و هما يرمزان الى العمال و الفلاحين فان اول ما يخطر على ذهن المرء الفكر الشـــيوعى و كارل ماركس و لينين الخ.

و ذات الامر ينطبق على كل الرموز المختزله للثقافات..

الرموز الدينيه مثل الصليب و الهلال و اعلام الدول و الاناشيد الوطنيه و الصور الموجوده على النقود و الطوابع كل ذلك من الرموز التى تلخص افكارا او تاريخا ما.

اهميه الرمز انه يتغلل فى سيكولوجية الانسان الى درجة كبيره بحيث ما ان يرى المرء الرمز حتى يرتبط فى ذهنه بمجموعة من الافعال المرتبطه بالرمز.لكن من المهم الاشارة ايضا ان هناك رمز تكون عادة بريئة لكنها ان استخدمت بطريقة سلبيه فانها تصبح مرتيطه بتاريخ معين .نجمة داوود مثلا رمز دينى لكن لن تجد فلسطينيا واحد يرتاح لرؤيتها لانها اصبحت مرتبطه بالاضطهاد. و التقيت مرة فلسطينيا كان حين يرى مجموعة من النجوم فان هاجسه كان ان يعد عدد النجمات لكى لا تكون مماثلة لنجمة داوود.

و فى احد المرات لاحظت شركة تصنع الحليب المجفف ان مبيعاتها فى الفلبين قد انخفظت الى النصف.دعت الشركة اختصاصين فى الاقتصاد و الدعاية و علم النفس التسويقى الخ .المهم انهم اكتشفوا ان سبب توقف قسم كبير من الناس فى الفليبين عن شراءها ان عليها لون الشمس و هو يتماثل مع لون العالم اليابانى. حيث احتلت اليابان الفلبين فى الحرب لعالميه الثانيه و قامت باعمال وحشيه ضد السكان .اذن باتت الصورة مرتبطه بذكريات مؤلمة الامر الذى لاقى ردة فعل. .

فى عصر العولمة باتت الصورة تلعب دورا هاما فى عمليات التسويق لاجل اقناع المشترى حيث يتم استخدام كافة الوسائل التعبيريه من السينما و المسرح و الموسيقى و الرسوم بهدف التاثير . و قد بات لها مختصون يدرسون الامر من النواحى الاجتماعيه و الاقتصاديه و السلوكيه و الاعلاميه و الجماليه الخ.

المحاضرة8/7

الرمز إدراكاً لشيءٍ ما يحل محل شيء آخر أو يماثله، بحيث تكون العلاقة بينهما علاقة الخاص بالعام، وذلك على اعتبار أن للرمز وجودا حقيقيا إلا أنهُ يرمز لفكرة أو معنى محدد. ولتوضيح ذلك نجد مثلاً استخدام الحمامة كتعبير عن السلام، أو المطرقة والمنجل كتعبير عن الشيوعية، أو غيرها من الدلالات التي ترمي لفكرة أو معنى من وراء استخدامها.هذا الاستخدام الرمزي بطبيعة الحال يختلف من ثقافة إلى أخرى، فالكثير من الرموز تعتبر بالنسبة لنا فأل خير، فيما يعتبرها آخرون فأل شر، وكذلك بعض الاستخدامات اللونية التي قد تعبر عن الحزن عند ثقافة، فيما تعبر عن الفرح عند أخرى!. العلماء يميزون بين الرمز والعلامة، حيثُ أن الرمز «كل ما يحل شيء محل شيء آخر في الدلالة عليه، مع وجود إيحاء أو دلالة عرضية متعارف عليها» هذه الدلالة أو الرمزية تستمد قيمتها من المجتمع وكيفية توظيفه للرمز، فالمجتمع هو الذي يفرض قيمته ومعناه. الأسود مثلا تعبير عن الحداد عند العديد من المجتمعات، فيما يستخدم الأبيض لذلك لدى مجتمعات أخرى.

- الرموز و أنتروبولوجية التحليل النفسي

أما عن العلامة أو الإشارة فلا تدل إلا على دلالة واحدة لا تقبل التأويل. دلالات الرمز واستخدامه يأتي على نوعين:مفرد عندما يُحيل إلى مدلولٍ مباشر، ومركباً عندما يأتي المدلول متعدداً، ومتطلباً للتأويل حسب مقام النص. وعلى ذلك نجد بأن الرمز على مستوى الصورة الشعرية يقوم بوظيفة تكثيفية. كما أن الرمز يفسر تبعاً لاحتياجات ورؤى المتلقي، فهنالك الرمز الأخلاقي، والرمز الطبيعي، والرمز النفسي، وقد استخدم منهج التحليل النفسي في تفسير الرموز، وتعتبر هذه المدرسة أحد أهم المدارس، والتي وضحت الكثير من الأمور الخفية. ويعد منهج التحليل النفسي، بقيادة سيغموند فرويد، أحد أكثر المناهج انتشاراً في تحليل الحكايات الشعبية، كما يضيف سند، ويرى هذا المنهج في هذه الحكايات والخوارق، انعكاساً لصورة الفزع لدى الفتاة أو الفتى. بالإضافة لذلك يربط بعض العلماء بين الاضطرابات النفسية التي تظهر

في اللا شـعور، بعالم الأسـاطير والخوراق، فقد نظر هؤلاء العلماء إلى النفس البشرية باعتبارها وحدة متكاملة»،

كما نجد بأن وجود الأنماط بأشـــكالها الرمزية هو الذي يجعل من الجميع متقبلاً وفـاهمـاً لهـذه الحكـايـات، بغض النظر عن الاختلاف العمري بينهم. الإنسـان في جميع أنحاء العالم يسـتخدم الرمز للتعبير والتواصـل، ولكن ما الذي يعنيه اهتمام الناس على المسـتوى العالمي بالرمز والرمزية؟ الرمزية تأخذ أشكالا متعددة تساعد على تبيان الأمور، وتبيان مستويات الفهم بأشياء لم يكن الشـــخص على علم بها، ومثالاً على ذلك، عبارة تســـتخدم للحفاظ على الســـر، وهي « «العصـــفورة قالت لي» وهذه العبارة تســـتخدم كرمزية عن الأخبار والأسرار، التي لا نريد كشف مصدرها.

- **مصادر الاستخدام الرمزي**

يذكر ســند بانهُ حاول عبر اشــتغاله البحثي في التراث على كشــف مصـدر استخدام هذه الرمزية، إلا أنهُ لم يوفق للكشـف عن ذلك وهذا هو طابع التراث الشــعبي الذي يعتبر في الكثير من عناصــره مجهول الهوية، إذ أننا لا نعلم من قال هذا المثل، ولا من أين أتت هذه القصة، ولا كيف نشأت. ويضيف الباحث إبراهيم بأن هناك الكثير من القصـــص التي تســـتخدم في علم النفس كطريقة لمسـاعدة الأباء والأمهات على كشـف مكنونات أبنائهم بطرق عفوية، وقد تكون هذه الطرق مفتاحا للتعامل مع الأطفال، وهذا لا ينحصـــر على هذه الفئة، بل أن هناك الكثير من القصص الشعبية التي نستطيع من خلالها الكشف عن مكنونات البشــر بمختلف فئاتهم العمرية. كما ان طبيعة مثل تلك الحكايات تمكننا من الاســتدال على ترابط التراث الشــعبي مع علم النفس، بالإضـــافة لترابطـه مع مختلف صـــنوف المعـارف، فنجـد مثلاً اســـتخـدام الرمز في التكنولوجيا عبر موقع تويتر الذي اتخذ من الطائر الأزرق رمزاً لـه. المدلول الحســـي والتجريدي للرمز المتتبع للحكايات والأســـاطير يجد بأن الكلمات لها معان رمزية في ســـياقات محددة، ويضـــاف إليها باســـتمرار معانٍ جديدة في ســـياقات جديدة تتوافق مع الزمن هذا ما يقوله ســـند حول طبيعة الرمز، وما يتعرض لهُ بمرور الزمن، فلا يمكننا اعتبار الرمز ذا طبيعة ثابتة، بل أنهُ قد يفقد جزءا من معانيه ودلالاته القديمة ليجد تســـويقاً في لحظة زمنية مغايرة. ولذلك يؤكد ســـند بأن الترميز حالة إنســـانية فطرية تعتمد على وظيفة الدماغ الإنسـاني المتطور، الذي يصـبح منضـدة، ومصـنع للرموز وبنائها العجيب في

التركيب العصـــبي الفائق. وهذا مبني على أن لكل لغة كلمات منطوقة، وكل هذه الكلمات يمكن أن تصـــبح حكايات مبنية على فكرة تجد مكانها المحدد في الدماغ البشــري، فنجد كلمات مثل «الملائكة، الآلهة، الاحصــنة الطائرة، إلى جنب كلمات مثل غسالة، أو هاتف، أو غيرها».

- الأسطورة ، اللغة و الرمز

إن هذه الكلمات، التي ترمز لشـــيء ما، محســـوس أو مجرد، تختلف في استدعائها كما تؤكد أبحاث البيولوجيا العصبية، فالاشياء المحسوسة التي تمتلك مقابلا حســـيا كالوردة مثلاً، «تأتي أولاً قبل الكلمات المجردة، كالحب، والحرية، والسلام...». ومن هنا يأتي التأكيد على أن «الأسطورة تنام في اللغة»، ويوضح ذلك بمثال، وهو أن الكلمات ذات الطابع الحســي، تتخذ في التوظيف الإسطوري مدلولاً جديداً قد يختلف عن المعنى الحقيقي، فمثلاً كلمة مثل الوردة لها مقابل حســي، لكنها قد تتخذ في مثل ذلك التوظيف مدلولاً يرمز للبهجة، أو الراحة. بين الأسطورة والحكاية الشعبية هل هناك اختلاف بين الأساطير والحكايات الشعبية؟ يبين لنا ســند بأن الاختلاف بينهما ليس كبيراً، فالفارق يكمن في طريقة اتصـــال الأحداث «فأحداث الحكاية الشــعبية قابلة للوقوع لكل شــخص، فيما الأســطورة تحدث لأشـــخاص معينيين كالأبطال، أو الآلهة...»، كما أن الفرق بين هذين الصنفين يكمن في كون الأسطورة تختتم بالمأسات غالباً، فيما الحكاية الشعبية تنتهي بالفرح. ويتابع سند بالتأكيد على أن «الحكايات الشعبية هي ما ينسجم مع الخيال الشــعبي، ويرويه جيل بعد آخر بشــكل شــفهي» كما تمتاز الحكاية بطابع «الموضــوعية، وتحمل بين طياتها رسائل للمتلقي تخفف من ضــغوطه الحياتية، وتعبر عن كل ما هو سعيد».